

هكذا تعرفت في نهاية الحرب الأهلية إلى الشاعر قبلان مكرزل شاعر الثورة والحرية

غيب الموت، في أنطلياس، الشاعر والمناضل قبلان مكرزل. وبوفاته يفقد لبنان واحداً من كبار رواد الأدب والشعر، والنضال الوطني، فيه. لقد غادرنا بعد أن تجاوز الثمانين. ولكن الثمانين هذه، برغم كل ما شهده الشاعر فيها من أحداث جسام، على الصعيد الشخصي، وفي حياته الحزبية، وعلى الصعيد العام، لم تكن قد أثقلته، بعد. كان لا يزال، إلى أيام معدودات، مليئاً بالحياة، يخطط لأعوام عديدة قادمة من الإبداع في الشعر، وفي شتى فنون الكتابة. صحيح أنّ الحرب الأهلية قد أرهقته، ولكنها لم تستطع أن تقهره، فواجهها، وواجه الظلم والقهر فيها، وواجه فنون الموت والتدمير، وواجه الفاشية بكل أشكالها، بالانغلاق على الذات في منزله المتواضع، في أنطلياس، في نوع من التحدي، والتمرد، والاحتجاج. تميّز قبلان مكرزل، في كل حياته، بابتداع نماذج فذة منها، على الدوام. واستمر في محبسه، في ملجأه، في منفاه الداخلي، طيلة سنوات الحرب، محتجاً، هكذا، عليها، صارخاً في وجه صانعيها والمتمادين فيها، من داخل منزله، وهو يقرأ، ويكتب، ويبتدع فنوناً، جديدة فذة في الكتابة. فقد كانت آخر كتاباته حول الأعشاب. ولذلك فحين أغمض عينيه، للمرة الأخيرة، كان أكثر اطمئناناً، وأقل قلقاً، وهو الشاعر الذي لم يعرف الراحة، ولم يعرف الاطمئنان، طيلة حياته الإبداعية، شاعراً، وكاتباً، وفي كل مراحل نضاله، داخل الحزب، وفي أجوائه. وهو لم يكن، قط، إلا في هذا الداخل، وفي أجوائه. فقبلان مكرزل الشاعر والمناضل الشهيد، الشهيد على امتداد حياته الطويلة، كان دائم الكفاح، دائم القلق، دائم التساؤل، دائم الاحتجاج. ولكنه كان مناضلاً حقيقياً. كان شيعياً حقيقياً.

غير أنّ مصدر الاطمئنان عنده، قبل أن يغادر الحياة بشكل مفاجئ، إنّما يعود للأمل الذي عاد إليه، بعد سنين طويلة من الأرق المعذب، والعيش مع الموت، أو بالقرب منه، وفي دوامة استمراره، والخوف على المستقبل. فقد خرج، ولأول مرة من منفاه الداخلي، ليشارك في مهرجان فوار أنطلياس، فعادت إليه الروح، وعاد إليه الرجاء، وعادت إليه كل سمات التمرد الخلاق، وعاد إليه كل ما لازمه في حياته الطويلة من ثقة بالذات، وثقة بالقضية التي التزم بها، وبالحزب الذي انتسب إليه وإلى أهدافه ومثله وقيمه، وعاد إليه حنينه إلى الشعر، بعد أن توقف عن الإبداع فيه زمناً طويلاً. وفي تلك اللحظات القصيرة التي التقبته فيها، في فوار أنطلياس، وكان الرفاق الذين غاب عنهم، وغابوا عنه، طويلاً، يتحلقون حوله، أحسست من خلال نظراته الوادعة، البعيدة المدى، أنّ

كل مخرون الذاكرة عنده قد استيقظ من الأعماق ليتلاقى، ويتواصل، ويندج، مع المستقبل الذي يطل من جديد على وطنه الذي أحبه، وعلى أنطلياس، بالذات، وفوارها، بالتحديد، فوار النزهة الريفية الممنوعة، مستقبل السلم القلق، والحرية التي تستعيد عافيتها، والأمل يتقدم للبلاد من نوع جديد. قبلان مكرزل يذهب بعيداً، يغادرنا، ولكنه يبقى في جداننا، نحن رفاقه، نحن أصدقاءه، نحن شعبه، نحن وطنه، ينبض بالحياة، والعافية، وبالقلق، وبالتمرد، وبالأمل.